جامعة الملك سعود
كلية الآداب
مجلة الآداب
ردمد (ورقي): ٣٦٢٠-١٠١٨
ردمد (النشر الإلكتروني): ٨٣٣٩-١٦٥٨

King Saud University
College of Arts
Journal of Arts
ISSN (Paper):1018-3620
ISSN (Electronic):1658-8339

مجلة الآداب، مج (٣٤)، ع (٢)، ص ص ٧٣-٨٨، جامعة الملك سعود، الرياض (٢٠٢٢م/ ١٤٤٣هـ)

Journal of Arts, Vol. 34 (2), pp 73-88, © King Saud University, Riyadh (2022 /1443H.)

استدعاء التاريخ في قصيدة "النفير" للشاعر أحمد الصالح: دراسة تحليلية

نوال بنت محمد بن حمد الصيخان

أستاذ الأدب المشارك، قسم اللغة العربية، كلية العلوم والآداب بعنيزة، جامعة القصيم

(قدم للنشر في ٢٩/ ٢/ ١٤٤٣هـ، وقبل للنشر في ٢٩/ ٥/ ١٤٤٣هـ)

الكلمات المفتاحية: أحمد الصالح، التاريخ، تبوك، التراث.

ملخص البحث: إنّ العودة إلى التاريخ واستدعاء بعض جوانبه يُعَدّانِ تجسيرًا للفجوة بين الماضي والحاضر، وما الماضي إلاّ مهاد الحاضر، وقاعدة المستقبل. وقد عمد كثير من الشعراء إلى التاريخ، ووظّفوه في نصوصهم؛ ليثريها من خلال تجليه فيها واستدعائه في جنباتها. والنص محلّ الدراسة وظف فيه الشاعر تاريخ تبوك واستدعاه، وكان هذا بداية من اختياره العنوان. وقد وظَّف الوقائع التاريخية الكبرى، والشخصيات التاريخية المتعددة، واستلهم الأحداث في بناء نصّه بصورة لافتة للنظر. وهذا ما استوقفني للبحث وللنظر في طرق استدعاء الشاعر للتاريخ، ومدى نجاحه في مزج أحداث الحاضر المعاصر مع الوقائع التاريخية الكبرى، والشخصيات التاريخية، والنصوص التاريخية، والوقائع والأحداث.

Recalling History in “An-nafeer” by Poet Ahmad Alsaleh: An Analytical Study

Nawal Mohammed Al-Sikhan
Associate Professor of Literature, Department of Arabic Language, College of Sciences and Arts in Unaizah, Qassim University
(Received: 29/ 2/1443 H, Accepted for publication 29/ 5/1443 H)

Keywords: Ahmad Alsaleh, History, Tabuk, Heritage.
Abstract. Returning to and recalling historical events serve to build bridges between the past and the present. The past is a foundation for the present and the future. Many poets have recalled history into their poems to enrich the aesthetic and thematic aspects of their poetry. Alsaleh employed the recall of important events from the history of Tabuk in the text under investigation, including the title with which he started. He also employs big historical events and historical figures in his text in an inspiring manner. This motivated me to study the techniques used for recalling history and the extent to which the poet succeeds in conjoining contemporary and major historical events, historical figures, and historical texts.

مقدمة

يفرض التراث -بكل روافده- قداسته وهيمنته على الأديب، فتحين منه التفاتة معجب، يحاول أن يعيش في أروقته، ويغذي نصوصه منه، رغبة في إضفاء شيء من القداسة عليها؛ وذلك عندما يوجه التراث الفكر بما يضم من قيم ورؤى، وما له من تأثير في العواطف والمشاعر الإنسانية. ويختلف التعاطي مع التراث وفق استيعاب كل أديب لتراثه وتقديره له، وميله لتعميق تجربته الشعرية، وتأصيل نصِّه باستلهامه.

و في تصنيف الأدباء في الإفادة من التراث؛ نجدهم ينقسمون قسمين: قسم مال إلى تقليد التراث ومعارضته، متخذًا منه أنموذجًا يحتذيه، ويسير عليه؛ وقسم سكنه التراث، ومزج تجربته الشعرية فيه، فتولدت علاقة روحية بين نصِّه والتراث. والتاريخ أحد فروع التراث الذي هيمن على النصوص الأدبية، وساعد على إنتاج الإبداع ضمن بنيته؛ ومن ثم تُعدُّ الإعادة للحدث التاريخي بصورة فنية إضافة جديدة، وتصديرًا مميزًا له؛ وذلك بإحداث تفاعل نصي، وحركة درامية بين شخصياتها، من خلال تداخل النصوص مع الحدث التاريخي في القالب الأدبي المناسب.

و تكمن أهمية الموضوع في أن الشاعر أحمد الصالح من أبرز الشعراء المعاصرين الذين كانت لهم بصمات واضحة في استلهام التراث، واستدعاء التاريخ، وتوظيف الشخصيات التاريخية في بناء نصه، بقالب فني يُسهم في حفظ التاريخ وتصديره إلى الأجيال القادمة تلك التي تجهل الوقائع والأحداث التاريخية العظيمة، وبخاصة ما يتعلق بمنطقة تستشرف المستقبل الزاهر" تبوك" فمن المفيد أن نقف على عمقها التاريخي المتجذر، وأن نستجلي عناصر استدعاء التاريخ في هذا النص، ونقف على ما فيه من مظاهر فنية، أخرجته من حيز السرد التاريخي إلى فضاء الشعرية. ولَمَّا كان للموضوع هذه الأهمية، تولد لدي دافعٌ لدراسة قصيدة "النفير" فهي خير مثال لما نذهب إليه، وقد سلطت الضوء على النص من عدة زوايا، مبتدئة بموجز عن الشاعر، مشيرة إلى مرحلة ميلاد النص، وعناصر استدعاء التاريخ فيه، وانتهيت إلى فنيات النص وجمالياته، وختمت البحث بأبرز ما توصلت إليه من نتائج.

الدراسات السابقة: لم أقف على دراسة تناولت جانب استدعاء التاريخ عند أحمد الصالح، بيد أنّ الأبحاث والدراسات حول الشاعر كثيرة، وهي مقسمة بين رسائل ماجستير ودكتوراه، وبين أبحاث وأوراق علمية، وبين لقاءات وحوارات في الصحف والمجلات؛ ومن هذه الدراسات:

-المطيري، عبد الله بن ماطر، (٢٠١٨)، شعر أحمد الصالح دراسة أسلوبية، بريدة، نادي القصيم الأدبي، ط١.

-يوسف، آمال يوسف سيد، (٢٠١٥)،توظيف الموروث الشعبي في الشعر السعودي، أحمد الصالح أنموذجاً، كرسي الأدب السعودي بجامعة الملك سعود، مج٢.

-الخضير، عبدالله بن علي،(٢٠١٦)، صورة المرأة في شعر أحمد الصالح، دار جامعة الملك سعود، الرياض، ط١

-الجطيلي، عبد الكريم، تشكيل الصورة البيانية عند شعراء القصيم المعاصرين، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية، جامعة القصيم.

تمهيد: عن الشاعر[1]:

لعل من المناسب قبل الوقوف على النص الشعري، أن ألمح لحياة الشاعر، إذ إن معرفة شيء عن حياته تمكن من قياس مدى حضور أدواته، وقدرته على استثمارها، وتفاعله

(١) يمكن الرجوع إلى المطوع، إبراهيم، كتاب حركة القصيم في منطقة القصيم، للنظر في ترجمة الشاعر، فقد وقف على سيرته، وآثاره الأدبية، وآراء النقاد فيه، وقد وفق المؤلف في جمع ما تناثر من عقد ترجماته في الكتب والصحف، وأحال إلى كثير من المراجع التي تحدثت عنه، منها: طبانة، بدوي، من أعلام الشعر السعودي، والهويمل، حسن، النزعة الإسلامية في الشعر السعودي المعاصر، زكي، أحمد كمال، شعراء السعودية المعاصرون.

مع موضوع نصه، فحضور المفردة الدالة، والحدث المناسب، لن يوظفا دون أن يكون الشاعر قادرًا على الاتكاء على تراث وثقافة يمتاح من معينها.

فالنص – حينها – سيكون بمثابة الوعاء الذي يمزج فيه مخزونه الثقافي؛ ليخرج صورته الشعرية وفق شعور صادق، ومفردة عميقة، وتجربة شعرية ناضجة.

والشاعر أحمد بن صالح بن ناصر الصالح، ولد في محافظة عنيزة، في سنة ألف وثلاثمائة واثنين وستين من الهجرة، درس في سني حياته الأولى في المدرسة العزيزية التي أسسها والده، ثمّ تدرج في الدراسة في مدارس عنيزة، وانتقل إلى الرياض وهو في المرحلة الثانوية، ثم التحق بكلية العلوم الاجتماعية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ودرس في قسم التاريخ. وللشاعر دواوين عدة، تتنوع موضوعاتها، وتزخر بتجاربه الذاتية ومشاعره الوجدانية والوطنية، ومن هذه الدواوين: (عندما يسقط العراف، وقصائد في زمن السفر، وانتفضي أيتها المليحة، وتورقين في البأساء).

وقد كان للمهاد الثقافي الذي هيّأه له والده دَوْرٌ كبيرٌ في ذلك، فقد كان يختار له الكتب، ويشجعه على القراءة والاطلاع، ويروي عن نفسه أنه قرأ سيرة الرسول ﷺ ، وبعض الصحابة، وقرأ دواوين الشعر العربي منذ طفولته، وكان لالتحاقه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية أثرٌ في تكوين ثقافته؛ ليشكل التاريخ رافدًا رئيسًا من روافد الإبداع الشعري لديه. "ويرى الشاعر: أن الشعر والتراث يجب أن يُقدِّما لإنسان هذا العصر رؤيةً صادقةً وواضحة ... وهذا يعتمد على عناصر كثيرة منها: ثقافة الشاعر والإرث التاريخي". (المطوع، ٢٠٠٧،ص٩٧٠) وقد تجلت هذه الرؤية في نصه الذي بين أيدينا، فهذا البحث يُعَدُّ محاولة لدراسة استدعاء التاريخ عند الشاعر من خلال قصيدته النفير التي كتبها وألقاها في تبوك في أمسية شعرية مكتظة بالأدباء والمثقفين ومتذوّقي الشعر في منطقة تبوك عام ١٤٢٣هـ[٢]، والنص ضمن قصائد ديوانه تورقين في البأساء (الصالح،٢٠١٣، ص٣٧)

المبحث الأول: عناصر استدعاء التاريخ في النص:

ثمّة تساؤل عند دراسة النص مفاده: ما الصورة التي يستدعي فيها الشاعر التاريخ؟ وهل سيستوعب نصه الأحداث التاريخية بقالب أدبي؟ إن إحداث التناغم بين الشعرية والتاريخ، يحتاج وعيًا بآلية كلٍّ منهما، لإيجاد نوع من التكامل والائتلاف بين النص الشعري والحدث التاريخي، (غازي،٢٠٢٠)، والشاعر كان ينتقي الأحداث التاريخية التي تثري نصَّه، ويحسن زاوية التصوير التي تطل منها عدسته، فكانت آليات بناء النص لديه وفق مقاربة تاريخية، تجتمع في كونها بوابة المستقبل العظيم، وقد كان توظيف التاريخ عنده وفق عناصر عدة وهي:

١) **المكان:** استدعى الشاعر –في مراحل تكوين النص الأولى قبل الظهور– المكانَ بأبعاده التاريخية وفاعليته مع العناصر المكوّنة للنص كالأحداث والشخصيات التي تتضافر مع بعضها؛ لتنتج النص، فللمكان أثره في لغة النص، وأسلوب الشاعر، وانطلاق العمل الأدبي يجعل الذكريات تنثال على الشاعر؛ فيعيد صياغتها بأسلوب يتناسب مع صداها وتأثيرها؛ فيكون للمكان السياسي والاجتماعي في الماضي الداثر دورٌ في التعبير عن الواقع الراهن.

فالشاعر كتب نصّه وهو في زيارة لتبوك بدعوة من النادي الأدبي هناك، هذه الزيارة جعلته يسرج خيل إبداعه مُتّكئًا على موروث تبوك التاريخي، وبنى نصَّه على الحكائية، وتقمَّص شخصية الراوي الذي أراد أن يحكي للحضور قصة، تؤصل لقيمتهم ومكانتهم ومكان مدينتهم في خريطة التراث، وفتح شرفات الأمل أمام الحضور لمعرفة تبوك المتجذِّرة في التاريخ،

(٢) نشر ملخص الأمسية الشعرية في جريدة اليوم، عدد السبت، ٩/ ١١/ ٢٠٠٢م

فأصبح تراث تبوك المكانيّ؛ يؤصل لحضور السلف في الخلف، وصور الماضي في الحاضر (الجابري، ٢٠١٥، ص٤٣٦). فجاء استدعاء المكان تعميقًا للتاريخ بأحداثه وشخوصه، ومنحه دلالة رمزية للانتصار والتقدم والعلو.

ظهر في النصِّ الحسُّ الفردي والحسُّ الجمعي؛ وذلك عندما صوَّر الشاعر مشاعره نحو تبوك وتفاعله مع تاريخها ومكانتها، وهو في الوقت ذاته، وجَّه خطابًا للآخر أو للجماعة المتلقية التي تفاعلت مع النص، بوصفه عمقًا تاريخيًا لموطنهم، ورمزًا تستدعيه الذاكرة في كل حين.

فالشاعر حرَّك كامن عواطفهم، وعزف على وتر المكان؛ وأضفى عليه السَّكَنَ والسَّكينة، وخاطب الأهل والصحاب، وجعل من تبوك مرتع الصبا ومحضن الشباب، ثم استجمع مشاعر المتلقّين لماضيها، فهو بذلك يشبه الواقف على طلل محبوبه، يحيي ذكراها، ويشعل جذوة الحنين إليها.

لقد قام الشاعر بالارتداد للخلف؛ ليصنع نصَّه برؤية تاريخية معتمدًا على تقنية المتواليات الحكائية (بعيو، ٢٠١١، ص ٤٤) التي تتّسع زمانًا، وتتوحّد مكانًا، ويتّسع معها الإبداع والتطلّع إلى المستقبل؛ لتخلد تبوك في ذاكرة التاريخ، وتمتدّ في مستقبله، ويتكامل الحدث الروائي التاريخي مع الحاضر.

عاد الشاعر إلى تبوك مستندًا إلى موقعها الجغرافي، فهي متميزة مكانًا منذ العصر القديم، فموقعها بين وادي القرى والشام (الحموي، ١٩٨٦، ج٢، ص١٤)؛ فهي ثغر الجزيرة ومفتاح الشام، وبوابة الطرق التجارية إلى الشام ومصر "ومركز التقاء أنماط حياة اجتماعية، وهجرات بشرية مختلفة، كان لها دورها الفعَّال في تكوين مجتمعات الشرق الأدنى القديم" (البلوي، ٢٠٠٨، ١٧٩).

يمتدّ تميّز موقع تبوك الجغرافي في العصر الحديث، ويتمثّل في كونها البوابة الشمالية للمملكة العربية السعودية مع دول الجوار، مع إطلالتها على البحر الأحمر في منطقة مهمّة جدًّا، فهي همزة الوصل مع شمال قارة أفريقيا؛ لذا اختار أن يعبّر عن تبوك بقوله: بوابة الفتح العظيم، حيث الهوية الأولى التي تنتمي إليها تبوك منذ أن افتتحت على يد المسلمين، ودانت لهم حبًا وشوقًا، وربطها بهويتها المعاصرة، حين انتظمت لؤلؤة داخل عقد الدولة السعودية.

٢) استدعاء " النفير" عنوانا للنص: إن العنوان بوابة العبور إلى النص، وهو فاتحة العمل الأدبي "ومرتكز دلالي، ومكوّن لغوي انزياحي، يستفز مكامن القراءة الشعرية والجمالية وآفاقها" (وردة، ٢٠١٨، ص٥)، وانتقاء العنوان فنٌّ ورؤيةٌ أدبيةٌ تُظهر جانبًا من براعة الشاعر، وتعاطيه مع نصّه. والعنوان الجيّد هو الذي يحمل دلالة المكان والزمان، ويُبنَى على إيقاع موسيقي يتناسب مع بنية النص.

عَنْوَنَ الشاعر نصَّه بالنفير، وأصلُ النفير بوقٌ يُنفخ فيه ليصدر صوتًا، والنفير قيام الناس لقتال العدو، والاستنفار والاستنجاد. (ابن منظور، ١٩٩٣، نفر). والعنوان يتماهى مع الآيات القرآنية التي نزلت في غزوة تبوك، يقول تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ﴾[التوبة:٣٨]، ويقول تعالى: ﴿وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[التوبة:٨١]. فبداية النص بداية صوتية مجلجلة، استخدم فيها الشاعر لفظ النفير؛ ليعود إلى التاريخ المتجذر في الذاكرة حول هذه اللفظة، وبما تختزنه من جيوش تصطف، وتنتظم، وتكون على أهبة الاستعداد لسماع تعليمات القيادة العليا، فالشاعر حوّل النص إلى مقطوعة حماسيّة، تستنهض الهمم؛ حتى يكون الأحفاد خير خلف لخير سلف، وينفروا مخلصين لوطنهم، ينفضون غبار الخذلان، ويسكتون أصوات المحبطين والمرجفين، وكأن تبوك موعودة بنفير دائم وحماس مستمر. فتبوك جاءها النفير، وأعدّت العدة لفتحها، وطرد فلول الروم، والآن يأتي النفير مرة أخرى؛ لتفتح تبوك أبوابها للنهضة والنمو والازدهار.

إن عنوان النص يعلن صراحة عن استمرارية النفير؛ كي لا يقف عند بوابة الماضي، بل يمسك بتلابيب الحاضر، ويشدّ أزر المستقبل الواعد الذي يراه الشاعر علمًا وثقافة ومجدًا تتوالى علاماته.

٣) توظيف الوقائع التاريخية: بنى الشاعر هذا الاستدعاء على علاقة التشابه بين الأحداث التاريخية التي ضمَّنها نصَّه والزمن المعاصر الذي كتبه فيه، وركّز الصالح على حدثين نوعيين يتناسبان مع عنوان النص من جهة، ومع تكرار عبارة بوابة الفتح العظيم من جهة ثانية، ويشكلان رمزًا للمكان الذي دارت فيه أحداث تلك الوقائع.

هذان الحدثان هما: غزوة تبوك، والحدث التاريخي الآخر هو معركة اليرموك ، فغزوة تبوك التي وقعت في عهد الرسول ﷺ في رمضان في العام التاسع من الهجرة، وقد سرد المؤرخون خبر هذه الغزوة التي تُعَدُّ أهمّ غزواته عليه الصلاة والسلام؛ حيث إنها تميّزت بكونها حرب الاتصال مع العدو الأجنبي بقيادة هرقل (الطبري، ١٩٨٨، ج٢، ص ١٨)، إذ كانت الروم تسيطر على تبوك، لتتّخذها مركزًا للتحكم والنفوذ والسيطرة على الجزيرة العربية، الأمر الذي جعل الرسول الكريم ﷺ يستشعر خطرهم على الدولة الإسلامية الوليدة في المدينة المنورة، فكان قرار غزوة تبوك إيذانًا بميلاد مشرق لتبوك (الدريس، ١٩٨٠، ص ٢٥١).

لقد استطاع الصالح أن ينقلنا إلى الحدث، واستثمر عنصرَيْ الزمان والمكان في بناء التجربة الشعرية، لرسم الحالة الزمانية التاريخية وهج الظهيرة؛ يقول:

بوابة الفتح العظيم تسامقي
زفت لك القصواء
في وهج الظهيرة
خير من وطئ الثرى

إنّ الإشارة الزمانية لوقت الحدث التاريخي يجسد العلاقة بين القصة التاريخية والصياغة الشعرية التخيلية، ويزيل الفجوة بين العالمين التخيلي والتاريخي (عثمان، ٢٠١٢، ص٢٥٧)، فالظهيرة وقت الوصول، ينزاح إلى زمن أوسع؛ إلى فصل الصيف الذي حدثت فيه المعركة، وفيه طاب الثمر في بساتين المدينة، وتجاذب صوت النفير مشاعر القلوب استجابةً لنداء الرسول ﷺ، وتوارت مشاعرُ القعودِ رغبةً في جني الثمار، ويحمل انزياحًا إلى قصة المنافقين الذين مالوا إلى الدَّعَة والجلوس في الظلال والثمار، وحاولوا تثبيط المجاهدين، كما حكى ذلك القرآن الكريم بقوله: ﴿وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:٨١] (بن عاشور، ١٩٩٧، ص ٢٨٠). كما أنه يحمل دلالة للحالة التي كانت عليها تبوك، وكأن فؤادها صادٍ، يتعطش للقاء الحبيب. ثم ينقلنا إلى المكان وزاوية رؤية الحدث في تبوك التي تحولت إلى عيون، يقول:

فإذا تبوك
عيون عاشقة
وقلب للحبيب يفيض بشرا

وكأنه يستمدّ صورته من قول الشاعر:(الأصفهاني، ج٣، ص ١٢٩)

ليتني إذ أراه كُلي عيونٌ فبعينين لست أشبع منه

وما بين عيون تبوك العاشقة قلبَ الحبيب محمد ﷺ، يفيض بِشْرًا وفرحًا ينشره في السهول وفي الذرى.

فالزمان والمكان كانا هما مفتاح النصّ من خلال رحلة "السفر بما فيه من تغيّر الزمن والحال والمكان، ومعه الرحلة والارتحال" (نوفل، ٢٠٠٠، ص ١٤). وفي اللقاء نمت الطمأنينة والسكون، وأينع دوح الخير الذي تفيَّأت ظلها قبائل تبوك، حيث حطّ الحبيب الرحال، وسرت الرحمة في السهول، يقول:

هذا محمد
قد أناخ بجيشه
رحماء بينهم
تفيأت القبائل ظلهم

وبعد أن عرض للحَدَثِ الأعظم، حَدَثِ قدوم الرسول ﷺ ينطلق بنا إلى مشهد آخر، ولا ينسى أن يغيّر عدسة التصوير وزاوية الرؤية، فهو ينقل المتلقي داخل أحداث غزوة تبوك انتقالات تجعلنا نشهد النور والعتمة، الرحمة والعنف، في ثنائية ضدية، فكانت تبوك في هذا المشهد هي مسرح الحكاية. يقول:

وهرقل؟!
أخلى جيشه
أكلت حشاشة قلبه
شهرًا يسير الرعب خلف فلوله
قد أنكرته الشام وجها
في المدائن والقرى

ويتابع الشاعر المشهد مصورًا هرقل وقد أحكم قبضته على تبوك، ونشر ظلمه، وحشد جيشه، لكن ملكه تضعضع، واشتعلت نيران الخوف في جوفه:

هذي تبوك هرقل
افتتح القلوب
وهزَّ عرش الروم
حتى انفض جمع الروم
أخزى ما يرى

والحدث التاريخي الآخر الذي وظّفه الشاعر في نصّه، هو معركة اليرموك التي وقعت في السنة الثالثة عشرة من الهجرة، في عهد الخليفة أبي بكر الصديق، فقد كانت تبوك نقطة الانطلاق للجيوش الإسلامية التي فتحت بلاد الشام، وخرج لهذه المعركة أشجع شجعان القادة من الصحابة على رأس الجيوش الإسلامية، حيث قام الخليفة أبو بكر الصديق، بتقسيم الجيش أربعة أقسام، قاد أبو عبيدة جيشًا، وقاد عمرو بن العاص جيشًا، وقاد يزيد بن معاوية جيشًا، وقاد شرحبيل بن حسنة جيشًا، وسارت تلك الجيوش فاتحة، وكانت معركة اليرموك المعركة الحاسمة التي دبّ فيها الرعب في قلوب الروم؛ حتى هربوا، وتركوا اليرموك وحمص ودمشق(٣). تلك المعركة دارت بين المسلمين والروم، وكان جيش الروم قد حشد جنده وعدّته، لكن هذا الحشد تضاءل أمام الإيمان الذي يملأ صدور المؤمنين، ومع تتابع الأحداث في المعركة وكثرتها، نجد أن الشاعر اختزلها في حدث واحد، هو حدث عكرمة، حين بايع الناس على الموت في سبيل الله، ذلك أن عكرمة نادى في المسلمين: من يبايع على الموت؛ فبايعه أربعمائة من الصحابة وقاتلوا وثبتوا في وجه الروم(٤). وهذا كان أعمق حدث ركز عليه الشاعر، فقد استثمر المفردة المعبرة، وجعل إشراق تبوك في وجه التاريخ مختزلا في قوله:

أبو عبيدة قاد جيش الفاتحين
وكان يعبر من هنا
وترجل التاريخ
يشهد كيف كان الموت
في اليرموك أغلى المشترى

فتبوك كانت بوابة الفتح لبلاد الشام، "يحيلنا هذا الحدث الجليل إلى انزياحات المكان،... وتجاوزه حدود الجغرافيا والتضاريس إلى ما يحمله من دلالات عميقة" (الدعجاني، ٢٠١٨، ص ٨)، حيث عدّ المؤرخون معركة اليرموك من أهم المعارك في تاريخ الإسلام، إذ هي بوابة العبور إلى خارج حدود شبه الجزيرة، حيث انتشار الإسلام هناك، واتساع مساحات البلاد الإسلامية، فجاء هذا الاختيار لمعركة اليرموك يتناسب مع قوله: بوابة الفتح العظيم. فالشاعر قد أخذ من الحدث التاريخي بالقدر الذي يكفي لرمزية شعرية تتولد فيها المعاني، وتسمح لانزيحات جديدة.

(٣) حدثت معركة اليرموك في عهد الخليفة أبي بكر الصديق، انظر في تفاصيل المعركة، الطبري، تاريخ الطبري، ج٢، ص ٣٣٥.

(٤) في الطبري تفصيل لقصة عكرمة ومناداته للناس بيع أنفسهم في سبيل الله، تاريخ الطبري، ج٢، ص ٣٣٨.

٤) ذكر الأسماء والأشخاص

يستعين الأدباء في نصوصهم بأسماء الأشخاص الذين ذاعت شهرتهم في سماء العلم أو التاريخ أو الأدب متقمّصين شخصياتهم تارة، ورامزين إليهم تارة أخرى، ومستلهمين قصص كفاحهم تارة ثالثة، فتكون هذه الشخصيات "قوالب عامّة اجتماعية وفلسفيّة، وتكتسب طابعًا أسطوريًا، فتتسع للتعبير عن فلسفة مختلفة" (هلال، ٢٠٠٨، ص ٢٥٦).

لقد وُفق الشاعر في استحضار الشخصيات التاريخية في نصه، بدلالاتها الدينية والفكرية والنفسية، ووظفها بمستويات عدة، على مستوى الأفعال والأقوال والرمز، وهو في كل مرة لا ينسى أن يقف أمام كل شخصيّة، يرسم شيئًا من ملامحها النفسية التي تبين ردات فعلها، في الفرح والحزن والخوف والأمن، وما تنطوي عليه من سمات وطبائع، وتبين أن أعلى مستويات الإفادة من الأشخاص، هو مستوى الأفعال والأقوال، وكانت شخصية الرسول ﷺ الشخصية المحورية في نصه، فبدأ نصه بقوله:

هذا محمد

قد أناخ بجيشه

وإليها يعود بقوله:

وكل ذكرى للحبيب محمد

لقد كانت شخصية الرسول ﷺ حاضرة بأفعال متتالية، وذلك حين ركب القصواء متوجهًا إلى تبوك، وحين دخل تبوك وأناخ بجيوشه، وهزَّ عرش الروم، وحين تلَقَّى أهلَ تبوك مسلمين، وكان حاضرًا بأقواله وتكبيرات النفير الله أكبر.

هذا الحضور المشرق للرسول ﷺ يقابله حضور مظلم لثاني شخصية في النص، وهي شخصية هرقل بقلبه الفزع، وأفعاله المرتجفة، ووجهه الشاحب من الخوف؛ حتى أنكرته الشام، وجيشه الذي دبَّ الرعبُ فيه؛ فتفرق في البلاد.

لقد استدعى الشاعر هذه الشخصية البغيضة التي يكثر وجود أمثالها في المجتمعات؛ ليحذر منها، وينفر من سلوكها، وتتكون صورة بشعة في الذاكرة لذلك الاسم، بدليل أنه أعاد ذكر اسمه أكثر من مرة، بقوله:

وهرقل أخلى جيشه

أكلت حشاشة قلبه

وقوله:

هرقل استنبح الدنيا

وقد بنى الشاعر جزءًا من نصه على الموازنة بين الشخصيتين المتناقضتين، وخلق بيئة درامية، تتابعت فيها المشاهد التي تعمق البناء القيمي داخل النص، فالتقابل بين الحاكم العادل والحاكم الظالم، يؤصّلُ لطريق الخير والعدل الذي يتمثل سبيله في الإسلام وهديه، وطريق الشر والظلم الذي يتمثل سبيله في ظلام الكفر وضلاله، وكان الشاعر يعبر عن هاتين الشخصيتين بصورة تجعل من كليهما رمزًا، يعود إليه القارئ في ربط كل شخصية مشابهة، يقول:

هذي تبوك هرقل

قد خلعت مسوح الروم

ألقت للحبيب محمد

فلذاتها قد أسلمت

وعلى ثراها كل شبر عاشق

حين نسب تبوك إلى هرقل- وكأنها جزء منه- لبست المسوح، وترهّبت له، ثم سرعان ما خلعت تلك المسوح، حين أقبل محمد ﷺ، وتفيّأت عدله، فسلمت وأسلمت، وهامت به حبًا وعشقًا.

والشخصية الثالثة شخصية أبي عبيدة، وقد استخدم أسلوب الحكاية في حديثه عنه، والاستمرارية في سيره في نواحي تبوك، فقد حضر أبو عبيدة بأفعاله، فقاد جيش المسلمين الفاتحين في معركة اليرموك، تسير ريح الجهاد أمامه، ويترجل التاريخ؛ ليكتب على صفحاته قصة الموت المبيع في اليرموك، والثمن الجنة والنصر. يقول:

أبو عبيدة قاد جيش الفاتحين

وكان يعبر من هنا

وفي النص تتنوع العناصر التاريخية، ويتنوّع استحضار الشخصيات وتوظيفها في مواقف رمزية (الخضير، ٢٠١٦، ص ٩٢)، فقد تحولت الشخصيات التاريخية، والمكان التاريخي إلى رمزية كثيفة الظلال ممتدة الأثر، فشخصية الرسول ﷺ بدأت متواضعة جدًا، فصور الشاعر الرسول ﷺ يركب ناقته متجهًا لغزوة تبوك مع الصحابة، وهو طريق طويل، و في صيف لاهب، وخذلان من بعص الصحابة، وتخوين من المنافقين، يُقابلُ عدوًا أعد جيشًا عظيمًا، لكن الله فتح له قلوب المسلمين في تبوك، وقذف الرعب في قلوب أعدائه، وتطورت الشخصية من شخصية يحيط بها الخطر، إلى شخصية قادت المخاطر، ونجحت في تحويل الرعب إلى أمن، فأصبح هذا الحدث يرمز للنصر بعد الخذلان. وعلى الجانب الآخر نجد شخصية هرقل تتنامى في النص من شخصية الملك القائد للجيوش، إلى شخصية الطريد الشريد، لتكون رمزًا للضعف بعد القوة. وتبوك المغلوبة على أمرها، يأتيها النصر، وتُعتق من رقِّ العبودية لهرقل، وتخرج إلى فضاء الإسلام والسلام، فتكون رمزًا للنصر بعد الهوان، والأمان بعد الخوف. وتحضر شخصيات أخرى إلى جانب تلك الشخصيات السابقة، لكن حضورها لا يعدو أن يكون حضور لفظ، ينزاح إلى رمزية بعيدة، "لها تأثيرها في المجتمعات الإنسانية، تخفق لها القلوب تعاطفًا، أو وجلا ورهبة، فإذا تمثلت في نص؛ فإنها تلج في أعماق النفس، وتتسع دائرة تأثيرها" (العطوي، ١٩٩٣، ص٥٥)، جعل الشاعر هذه الشخصيات الرمزية خلفية للموقف الشعوري الذي يستند عليه الأداء الشعري، حيث يتحول الحدث إلى واقع يحمل دلالات رمزية (إسماعيل، ٢٠١٣، ص٢١٤)، تمتدّ دلالاتها لأزمنة مختلفة، معتمدًا على الثنائية الضدية للخير والشر، والحق والباطل، والسلام والخوف، والنور والظلام، داعيًا إلى الانعتاق من بوتقة الخنوع مستنهضًا الهمم في الانتفاض والالتفاف في قوة كقوة خالد بن الوليد والمعتصم، تقف في وجه الخونة أحفاد بني قريظة، و قد جعل الشاعر (تبوك)مسرحًا لذكريات أشخاص، شكلوا عمقًا تاريخيًا لتبوك وثقلا تراثيًا لها. وهكذا يستمر الشاعر في تحريك شخصياته التي استدعاها في نصه، والتحول من التعبير عن الشخصيات التاريخية إلى التعبير بالشخصيات وتوظيفها توظيفًا فاعلًا برمزية خالدة (زايد، ١٩٩٧، ص١٣)، نحو قريظة التي خرجت من إطار القبيلة اليهودية التي عاهدت الرسول ﷺ ونكثت العهد، وتحالفت مع قريش ضد المسلمين، إلى رمز لليهود المحتلين الغاصبين الذين ليس لهم ذمة و لا عهد على مر العصور، وقد كان الشاعر موفقًا في استدعاء بني قريظة، بما يتناسب مع الزمن الذي كتب فيه النص، والأحداث التي توالت على فلسطين في نفس العام؛ حيث حدثت مجزرة جينين، وأعاد اليهود احتلال مدينة بيت لحم، واقتحموا مستشفى رام الله، وفي العام نفسه وافقت الحكومة الإسرائيلية على بناء الجدار العازل في الضفة الغربية(٥). ولعل هذه الأحداث جعلت الشاعر يرتدُّ إلى التاريخ محاولًا استنهاض الهمم، وطرد الإحباط الذي يجثم على صدر الأمة الإسلامية، من خلال إعادة الوهج إلى الشخصيات التاريخية.

ففي النص تتجسد البطولة في خالد بن الوليد والمعتصم، وتتجسد الخيبة والخذلان في بني قريظة بدلالات رمزية، تشير إلى أحداث تاريخية، تلازم تلك الرموز.

المبحث الثاني: مظاهر فنية في النص:

استحضر الشاعر بعض الألفاظ والعبارات التاريخية الخالدة التي جاءت كجزء من رؤية الشاعر للنص، هذه الألفاظ لها أبعادها الدالة، ومن هذه العبارات التضمين

(٥) ورد في موسوعة المعرفة عبر موقعها الإلكتروني سلسلة من الأحداث الدامية التي مرت بها فلسطين من قبل قوات الاحتلال الإسرائيلي، مقالة تتناول الأحداث التي وقعت في فلسطين سنة ٢٠٠٢م.

https://www.marefa.org/2002_%D9%81%D9%8A_%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D9%86

المباشر للنص القرآني ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]

في قوله:

هذا محمد

قد أناخ بجيشه

رحماءُ بينهم

تفيأت القبائل ظلهم

فالشاعر ضمَّن رحماء بينهم في نصه مكتفيًا بها عن ذكر أشداء على الكفار، إذ إن المواقف في تبوك، حال الفتح يحتاج رحماء يملؤون الأرض عدلًا، وهي الآن تحتاج الرحماء الذين يتوادون ويتعاطفون؛ ليكونوا صفًا واحدًا، يحقق البناء والعطاء؛ وهو في ذلك يتشارك مع الشعراء في تجاربهم الشعرية التي استدعوا فيها النصوص التراثية، بإيحاءات ممتدة شملت البنية الكلية للنص الشعري لديه. (حمدان، ٢٠١٥، ص١٧١)

ثم استفاض في ذكر حالهم مع الكفار في مقطع آخر من النص، فكانت بلاغة الإيجاز في تضمينه، تمثل المفتاح لما بعدها.

ويستخدم الشاعر في التعبير عن الجيش لفظ جيش العسرة[٦]، ذلك الجيش الذي جهَّزه عثمان بن عفان رضي الله عنه، غير أنه لم يكن استدعاء الشاعر لقصة جيش العسرة، لم يكن سردًا تاريخيًا، بل كان بابًا، ينفذ منه إلى رمزية هذا الجيش الذي خرج من رحم معاناة المجتمع آنذاك، حيث الفقر الذي أنشب أظفاره، وتنازعت النفوس مشاعر الفقر، والرغبة في الجهاد. ويتجدّد التاريخ، ويظهر جيش العسرة مرة أخرى مثقلًا بالتطلعات والإنجازات، وفي تبوك يحطّ رحاله، ليتبدل العسر يسرًا، وتدور عجلة التنمية في تبوك، فقد شكل هذا الحادث معادلًا موضوعيًا لواقعه (جريو،٢٠١٧م، ص٤)؛ فوظّف الحدث؛ ليعبّر عن الحاضر الذي يعيشه، والمستقبل الذي يتطلّع إليه.

وهذا لدرجة أن بعض المؤرخين سمى غزوة تبوك غزوة العسرة تخليدًا لحال الجيش وصعوبة الإعداد للغزوة، غير أن هذا الجيش استطاع أن ينتصر مع قلة عتاده وعدته مقابل ما جُهِّز به جيش الروم، وهذا تعبير جميل وصفه به الشاعر قائلًا:

لله جيش العسرة

افتتح القلوب

وهزَّ عرش الروم

حتى انفض جيش الروم

أخزى ما يرى

فكان افتتاح القلوب نتيجة لهذا الجيش الذي يفكّ الأبواب المغلقة عسرًا، ويحيلها إلى يسر، وذلك كما فعل عثمان بن عفان، حينما تعسر تجهيز الجيش، فطرح ماله، وتيسر الأمر؛ ففرحت القلوب، وقرَّتِ النفوس، وسار الجيش يهزُّ عروش الروم، حتى دبَّ الرعب في قلوبهم.

إن القاعدة الدينية لدى الشاعر عند تعامله مع القرآن الكريم تلاوة واستماعًا، رسَّخت في ذاكرته كثيرًا من الألفاظ القرآنية، واستطاع الشاعر استدعاءها في نصه، نحو (أغطش) و(اثّاقلت) في قوله مصوّرًا ما يحصل في الوقت الحاضر من نصرة الحق وسعي للمجد، يقول:

والجياد اثّاقلت للأرض

أغطش مجدها ماء النعيم

فأجفلت

فتثاقل الجياد وميلها للدعة والتكاسل؛ إعادة لمشهد تثاقل بعض من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، في غزوة تبوك حين طابت الثمار وأورفت الظلال[٧]. وجاء القرآن معاتبًا لهم بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي

(٦) جيش العسرة جهزه عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث أنفق من ماله نفقة عظيمة لم ينفق أحد أعظم منها، بلغت ثلاثمائة بعير وألف دينار، ابن الأثير، ١٩٩٤، ج٢، ص١٤٩.

(٧) في الطبري فصل القول في هذه القصة التي كانت بداية الغزوة والاستعداد لها، ج٢، ص ١٨١.

سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾[التوبة:٣٨].

وتكتمل الصورة الفنية لهذه الجياد المتثاقلة التي مالت إلى السكون، ويطول العهد بها عن الجهاد وتسطير الأمجاد، حتى أظلمت أمجادها وكأن النعيم أغطش مجدها التليد، وجعلها في ظلام دائم، فقرّت وسكنت.

ويتناص الشاعر مع الحديث النبوي الشريف:" أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نُصرت بالرعب مسيرة شهر، ... الحديث"[٨] في قوله:

شهر يسير الرعب خلف فلوله

في بيان للمزية التي أعطيت للرسول ﷺ دون غيره، وكيف أن الرعب الذي قذفه الله في قلوب أعدائه جعلهم يفرون خوفًا وفزعًا. فالشاعر يختار من النصوص ما يتراسل معها ويوظفها في إثراء نصه، وتأصيل فكرته، وذلك باستدعاء النصوص المعاضدة للحدث التاريخي. (زايد، ١٩٩٧، ص٥٩).

كما طوَّع الشاعر لغة النص وفقًا لتقنيات دلاليّة موحية، مبتعدًا عن اللغة المهجورة والمفردة العلميّة واللفظة الوحشيّة، واستطاع أن يستدعي الأحداث التاريخية بلغة شاعرية، تحفل بالصور والأساليب الفنية، فقد افتتح النص بنداء خلا من أداته، ليدل هذا الحذف على القرب، فهي بوابة قريبة من النفس وإن بعدت المسافات.

فإضافة الفتح إلى البوابة، ووصف الفتح بالعظيم؛ يوحي بشيء من التلازم بين البوابة والفتوحات العظيمة. وقوله: "وهج الظهيرة" أكثر دلالة في التعبير عن شدة الحر، وهذا شكل نوعًا من الانزياح المجازي، ويمثل انحرافًا "عن الاستخدام العادي للمفردة، باستعمال الكلمة في غير ما وضعت له لغويًا، وانزياحها إلى معانٍ أكثر كثافة، وأعمق دلالة"(فضل، ١٩٨٥، ص ٢٤٨).

وحين يذكر فتح تبوك وانتصار المسلمين، يقول: "افتتح القلوب" وهذا يمثل صورة معبرة لحال تبوك إبان الظلم الذي وقع عليهم من هرقل، فلمّا جاء الفتح سارعت القلوب؛ كي تلقى جيش المسلمين، وصورة افتتاح القلوب صورة مجازية، تعبر عن قيمة الفتح الذي لم يكن فتحًا لمكان، بل تعداه إلى فتح قلوب أهل المكان، وفي لفظ افتتح دلالة على إزالة الإغلاق، وزيادة التمكُّن، والاستحواذ. والتعبير بـقوله:" افتتح القلوب" كناية عن شدة تقبل أهل تبوك للرسول ﷺ، حين فتحوا له القلوب، وهي مكمن العاطفة، وأساس الاعتقاد، ولا تغيب عن صور الشاعر صورة المرأة أو موصوفاتها، إذ نراه يستعيرها بقوله:

زفّت لك القصواء

فالقصواء زفّت الرسول الكريم ﷺ إلى تبوك في فتح عظيم؛ ومن ثمَّ فإن التعبير بزفت أحال الموقف من حالة القتال والغزو إلى حالة الفرح والسرور، واكتمال مشهد الفرح بصورة، جعلت تبوك عاشقة، تنتظر حبيبها، وفي ذلك يقول:

فإذا تبوك

عيون عاشقة

وقلب للحبيب يفيض بشرا

فصورة الرعب الذي يطارد هرقل صورة تعبيرية، تبنى على أحداث بتسلسل درامي مسرحي، بداية من قوله" أخلى جيشه" التي تدل على كامل التخلص والإقالة منه، مرورًا بقوله: "أُكلت حشاشة قلبه"، فبناء الفعل للمجهول يدلّ على مشاركة عوامل عدة في القضاء على رمق الحياة لديه، كالنصر الذي أفزعه، وتنكر تبوك له، وانتفاضتها عليه، حتى فرَّ لا يلوي على شيء، يخيّل إليه أن هناك من يلاحقه، وتجسّد الرعب جيشًا يطارده، فمضي طريدًا، تنكره الديار التي كان يقف على ترابها ملكًا، وتدين له بالولاء، يقول:

وهرقل

(٨) هذا الحديث أخرجه البخاري في صحيحه،٢٠٠٢، كتاب الصلاة، في باب قول النبي ﷺ: جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، الحديث ٤٣٨،دار ابن كثير، دمشق، ط١، ص١١٨.

أخلى جيشه
أُكلت حشاشة قلبه
شهرًا يسير الرعب خلف فلوله
قد أنكرته الشام وجهًا
في المدائن والقرى

وتتابع الصور في النص ينمُّ عن حبكة فنية محكمة النسج: (الصالح،٢٠١٣، ص٣٩)

هذي تبوك هرقل
قد خلعت مسوح الروم

صوَّر الشاعر (تبوك)كأنها جارية مملوكة لـ هرقل، تخلع لباس الملوكية، وتتلقى الحرية على يد الحبيب محمد، وكذلك صورة ريح الجهاد، وصورة المأساة التي تجسّدت وحشًا، يعضُّ العزة في قوله: (الصالح،٢٠١٣، ص٤١)

عضّت المأساة عزتنا

ومع ما في النص من أحداث دامية، وحرب طاحنة؛ نجد أن الصالح لا يفتأ يذكر الحبّ والصبابة، فتتناثر في النص مفردات الحب والشوق، كما في قوله: عيون عاشقة/ وافتتح القلوب / وكل شبر عاشق/ والشوق يحملني إليك/ وليل الصبابات/ وأي قافية يعطرها هواك / والقلب يا وطني بحبك عاشق، بل إن الشاعر جعل النص يبنى على علاقة حب بينه وبين (تبوك) وكأنه ذلك العربي الذي يتغنى بالحبيبة، ويصف محاسنها، ليستميل القلوب إليها، يقول:

بوابة الفتح العظيم
بأي ذكرى ألتقيك
وأي قافية يعطرها هواك

ويقول:

بوابة الفتح العظيم
الشوق يحملني إليك

وقوله:

بوابة الفتح العظيم
إليك تلتفت القلوب

فعندما ينادي (تبوك) لا يذكر اسمها وإنما يقول: بوابة الفتح العظيم وكأنها محبوبة يهاب ذكر اسمها مباشرة، حتى ليمرَّ في ذاكرتنا قول ابن زيدون وهو يخاطب ولادة:(ابن زيدون، ٢٠٠٤، ص١٦٧)

لسنا نسميك إجلالًا وتكرمة وقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا

هذا الأسلوب الذي مال إليه الشاعر، جعل التراث التاريخي يتناغم مع الشاعرية؛ فقد استطاع الشاعر أن يوظِّفَ التاريخ بأحداثه وشخوصه، دون أن يبتعد عن الشاعرية، مما جعله يحتفظ لنصه بالفنيّة، والدفق العاطفي، فالشاعر اتخذ أسلوب الشخصية السّاردة، والمؤرخ الذي يحكي ماذا حدث؟ وكيف حدث؟ مبتعدًا عن النزعة الخطابية التقريرية، والسرد التاريخي، مغلبًا عاطفته فهو لم يتعامل مع أحداث أو جمادات، بل حرك الأحداث والأماكن، وبثَّ الروح في الأزمنة والمواقف، فجاء نصُّه دافئًا مع ما وقع في ساحات من معاركه من نبل وسهام. وكأنه بذلك أعاد صياغة الأحداث بلغة جديدة؛ لغة مفعمة بالعاطفة والحب. ظاهرها موضوعي، وباطنها ذاتي موغل في قراءة الحدث التاريخي (أبو ندى، ٢٠١٧، ص١)

فلا يكاد الحسّ الشاعري يغيب عن نصّه، بل جاء زاخرًا بالشاعرية، يأخذ من التاريخ الحدث الرئيس، ثم يغمسه بدواة مشاعره، وينفثه شعرًا؛ فظهر كأنه شاهد على الأحداث أو جزء منها، ينتقل بينها بسلاسة ومنطقية، يحوّرها بما يتناسب مع أسلوبه الشعري الممسك بخيط الإبداع والمتعة.

كما أن تنقله بين الأفعال وأزمنتها؛ يجعلنا نعيش التجربة الشعرية كاملة، ونستحضر الأحداث، فمنذ بداية النص بوابة الفتح العظيم تسامقي بدأ بفعل الأمر، وجعلنا أمام حدث مرتقب، ثم يثني بالفعل الماضي زفّت لك القصواء، ففعل الأمر قائم على الفعل الماضي زفّت. وجمعه بين المستقبل والماضي يجعلنا نعيش شعورًا واحدًا يصف "المخزون النفسي المتراكم من الموروث في تفاعله مع الواقع والحاضر إسقاطًا من الماضي أو رؤية للحاضر" (حنفي، ١٩٩٢، ص ١٩).

وخطابه لتبوك أن تتسامق باستخدام الفعل الماضي متمثلًا في خروج الرسول ﷺ على ناقته القصواء للغزو خطاب شموخ؛ إذ التسامق ارتفاع، وتصوير ذلك بحفل زفاف ومحفل فرح، وكأن تبوك تعيش حالة ترقّب لهذا اللقاء. ثم تتتابع الأفعال الماضية (أناخ، وتفيأت، ومشى، وأخلى).

ويمكننا تقسيم النص إلى زمنين ماض وحاضر، وكأن تبوك كانت على موعدين؛ موعد مع الفتح، وموعد مع الشاعر، ففي حديثه عن غزوتي (تبوك واليرموك) تتوالى الأفعال الماضية: (زفت، وأناخ، وتفيأت، ومشى، وأخلى، وافتتح، وهزَّ، وخلعت، وأغطش) وهذا يفيد توالي السرد والحركة، والانتقال من مشهد إلى آخر.

وعندما يتحدث الشاعر عن موعده مع تبوك يقول: (يحملني، ألتقيك، يعطرها، ينداح) وهذا الأفعال المضارعة تفيد التجدد والحركة والاستمرار.

وتبرز في النص ظاهرة التكرار، وذلك مثل تكرار عبارة أو لفظ، كقوله بوابة الفتح العظيم، وكأن هذا التركيب الذي يكرّره صار اسمًا لتبوك، أو لقبًا لزمها، فاشتهرت به، فهذا التكرار أضفى على نصه إيقاعًا جميلًا، كما عزّز المعنى وعمّق دلالته.

فتكرار الذكرى يعد إفصاحًا عن هذا التوظيف للتاريخ، وهو الذكرى، وإن تعدد المخاطب؛ فقد خاطب في أولاها الفتح العظيم بأي ذكرى ألتقيك، ووصلها في الثانية بالنبي محمد ﷺ، وأعقبها في الثالثة وأكدها بقوله: (بوابة الفتح العظيم... إليك تلتفت القلوب) فهي ذكرى لا يملُّ الحديث عنها، ولا يملُّ سماعها، فتكرار كلمة "فتح" يذكرنا باتصاله بتلك الفتوحات العظيمة، وتكون القصيدة كما أراد لها الشاعر نفيرًا متصلًا.

إن تكرار لفظ الجلالة(الله) أكبر يعطي نوعًا من التعبير الصريح عن الأحداث التاريخية التي دارت على أرض تبوك، وهي أحداث بين إسلام وكفر، أحداث تُرفع فيها راية (الله أكبر)، وكأن (تبوك) رحى معركة، تطحن كل مرجف وظالم، يطأ أرضها، فكان لهذا التكرار القدرة على رفع الحالة النفسية والمعنوية، واستنهاض الهمم (المطيري، ٢٠١٨، ص ٢٩٥) وذلك تمثَّل في تكرار (فوق) في قوله:

فوق كيد المرجفين

فوق غدر الخائنين

فوق ظلم القاسطين

فوق كل هوى

فتكرار لفظة فوق، يحمل دلالة مكانية، وعلو الله أكبر يرتفع؛ ليكون فوق كل مرجف وخائن، وقاسطٍ وذي هوى.

إن النص عندما جاء على بنيته في صورة شعر التفعيلة؛ حمل تجديدًا في الشكل، وتناسبًا مع الأسلوب السردي للنص التاريخي، ومنح الشاعر "حرية وتصرفًا في طول المقاطع، ومنعه من الحشو، فتخلص من التكرار" (أبو ندى، ٢٠١٨، ص ٢٨)؛ وهذا أتاح للشاعر إتقان دور الراوي، وجعله يتمكن من الحبكة الدرامية للأحداث التاريخية، دون تقيِّد بالبيت الشعري والقافية. وقد جاءت القصيدة على بحر الكامل في صيغته المعاصرة الحرة، وهذا البحر نُظم عليه شعرٌ كثيرٌ، منها معلقتا عنترة ولبيد وغيرهما من الشعراء.

إن القصيدة تقوم على أحد عشر مقطعًا، ينتهي كل مقطع بقافية، هي بمثابة السلك الناظم للنص، فكأن كل مقطع من هذه المقاطع يمثل بيتًا مستقلًا استقلالًا دلاليًا وتركيبيًا، غير أنه في الوقت ذاته ينتظم مع باقي المقاطع في القافية.

هذه المقاطع تختلف طولًا وقصرًا، وفق مشيئة الشاعر، فجاءت المقاطع الأولى قصيرة كتمهيد وعرض للموضوع، ثم تطول في المقاطع التاسع والعاشر والحادي عشر؛ لتدل على صلب الموضوع. حيث إن تجزئة القصيدة إلى مقاطع يؤدي الدور الذي تؤديه القصيدة الكلاسيكية، فالتفعيلات في مجموعها تعادل سبعة وعشرين بيتًا؛ فيكون النص مثل قصيدة على بحر الكامل متوسطة الطول.

وعلى الرغم مما في النص من تجديد في الشكل؛ نجد أنه لا يزال يحتفظ بشيء من التقليدية، ومسايرة الأسلوب القديم،

وتأثر بفلسفة القصيدة التقليدية. (الورقي، ط ٢٠٠١، ص ٥٦)، ونلمس هذا من خلال تقليد الراحلة، والحديث عن الرحلة، فحين ذكر القصواء ناقة الرسول ﷺ أعادنا الشاعر إلى تقليد جزء رئيس، كان يحتل مكانا في عمود القصيدة القديمة، وهو وصف الراحلة والإغراق في ذكر تفاصيلها، والوقوف على قوتها، ونجابتها وسائر صفاتها التي تصلح أن تكون معادلًا موضوعيًا ونفسيًا يلملم انكساره بعد الوقوف على الأطلال والطريق الموصل إلى الممدوح، حيث العطايا والهبات.

جاء توظيف الناقة شبيهًا بتوظيف الشعراء القدماء من حيث الهدف، وإن لم يغرق الشاعر في وصف الناقة، واكتفى بذكر اسمها، وهو يغني عن تفاصيل صفتها، إذ القصواء ناقة الرسول ﷺ، وإن كان الصالح يلتمس قوته من الناقة بعد أن هزه الحنين، وأتعبه الشوق إلى الحبيبة وأبكاه الطلل، فإن الصالح هنا جعل الناقة معادلًا موضوعيًا لتبوك بعد سنوات من الهوان والذل والشتات تحت حكم هرقل، فكانت بشارة الفتح العظيم، وبداية الطمأنينة والأمان والاستقرار.

وبعدُ فلم يكن استدعاء التاريخ في النص ترفًا لفظيًّا، وفضولًا معنويًّا، ومتحفًا ثقافيًا لتاريخ اندثر، بل كان ركنًا شديدًا لجأ إليه الشاعر في بناء النص؛ فانصهرت فيه المواقف التاريخية؛ حتى أصبحت عمود النص وكيانه، وخلق من تبوك رمزًا متجددًا للأمل والعزيمة يتماهى مع الحاضر والمستقبل.

وفي نهاية البحث خلصت إلى نتائج، أبرزها:

١-أسهم التاريخ بتغذية النصّ، وتعميق التجربة الشعرية لدى الشاعر، وسار في بنائه وفق مقاربة تاريخية، تجمع بين تبوك الماضي وتبوك الحاضر، حين استفاد من البعد التاريخي والجغرافي لتبوك، ليعمق مكانتها في نفوس المتلقين.

٢-كان لتوظيف الرموز التاريخية أثرٌ كبيرٌ في توسيع الدلالات الدينية والفكرية والنفسية، وكان الشاعر على وعي بتوظيف الوقائع التاريخية، فأضفى على النص أصالة وعراقة، ومنح الأماكن قيمة تاريخية متجذرة في أعماق التاريخ، وممتدة إلى أفاق المستقبل.

٣-جاء استدعاء التاريخ في النص تحويلًا له من الغنائية إلى الدرامية، بالاعتماد على الحكائية في نصِّه، مستندًا إلى الزمان والمكان والشخصيات التي تكاملت في بناء الحدث الحكائي التاريخي.

٤-امتاز النص بالمزج بين الجانب العقلي المتمثل بالعرض التاريخي، والجانب الوجداني المتمثل بالصورة الفنيّة التي يشكّل بها الأحداث، وترسم بها الشخصيات التاريخية، بلغة شاعرية تحفل بالصور والأساليب الفنية.

٥-وفق الشاعر في بناء نصِّه على شعر التفعيلة، الذي مكَّن الشاعرَ من الحبكة الدرامية للأحداث التاريخية، وأتاح له أن يتعاطى مع الحدث وفق مساحات أكثر حرية في البناء الشعري.

٦- استطاع الشاعر أن يعيش التجربة الشعرية، ويتداخل مع التاريخ، ويتفاعل مع الأحداث والجمادات، بشاعرية عالية؛ لقد اندمج مع التاريخ دون أن يستنسخه، لذا جاء نصه دافئًا مفعمًا بالعاطفة، مع ما فيه من حروب ومعارك.

المصادر والمراجع

أولا: المصدر:

الصالح، أحمد (٢٠١٣)، ديوان تورقين في البأساء، مركز صالح بن صالح الاجتماعي، ط١.

ثانيا: المراجع:

ابن زيدون (٢٠٠٤)، ديوانه ورسائله، مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ط٣.

ابن منظور (١٩٩٣)، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط٣.

أبو ندى، وليد محمد (٢٠١٨)، الفكر واستدعاء التاريخ في مسرحية ثورة الزنج للكاتب معين بسيسو، *مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية*، فلسطين، مجلد ٢٥، العدد ١، ١٣-٣١.

إسماعيل، عز الدين، (٢٠١٣)، الشعر العربي المعاصر وقضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، القاهرة، دار الفكر العربي، ط٣.

الأصفهاني، الراغب (١٩٠٢)، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، بيروت، دار الكتب العلمية.

البخاري، محمد بن إسماعيل، (٢٠٠٢)، صحيح البخاري، دمشق، دار ابن كثير، ط١.

بعيو، نورة، (٢٠١١)، أشكال وتقنيات توظيف المادة التاريخية في الرواية العربية المعاصرة، *مجلة الخطاب*، الجزائر، *العدد* ٩، ٤١-٥٠.

البلوي، مطلق، (٢٠٠٨)، تكوين تبوك الثقافي، *ملتقى تبوك الثقافي الأول*، تبوك، النادي الأدبي بتبوك، ١٧٧-١٩٨.

الجابري، محمد عابد، (١٠١٥)، التراث والحداثة دراسات ومناقشات، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٥.

جريو، خيره، (٢٠١٧)، توظيف التراث التاريخي العربي في شعر أمل دنقل، *مجلة إشكالات*، الجزائر، معهد الآداب واللغات، المركز الجامعي، عدد١١، ٥٠-٦٩.

حمدان، عبد الرحمن، (٢٠١٥)، تجليات التراث الأدبي وجمالياته في تجربة فوزي عيسى الشعرية، *مجلة كلية فلسطين*، العدد٢، ١٦٢-١٩٠.

الحموي، ياقوت، (١٩٨٦)، معجم البلدان، بيروت، دار صادر.

حنفي، حسن، (١٩٩٢)، التراث والتجديد، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٤.

الخضير، عبد الله، (٢٠١٦)، صورة المرأة في شعر أحمد الصالح، دار جامعة الملك سعود، الرياض، ط١.

الدريس، خالد، (١٩٨٠)، دراسة إقليمية لمنطقة تبوك، *دارة الملك عبد العزيز*، مج ٥، عدد ٤، ٢٤٨-٢٥٥.

الدعجاني، خالد، (٢٠١٨)، استدعاء المكان التاريخي في شعر الخطراوي، *المجلة الدولية للآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية*، عدد٤، ١٢٠٥٠.

زايد، علي عشري، (١٩٩٧)، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، القاهرة، دار الفكر العربي، ط١.

الشيباني، علي ابن الأثير (١٩٩٥)، الكامل في التاريخ، تح: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت.

الطبري، محمد بن جرير (١٩٨٨)، تاريخ الطبري، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢.

عاشور، محمد الطاهر (١٩٩٧)، التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون.

عثمان، أمين (٢٠١٢)، توظيف التراث في الرواية التونسية، تونس، الدار التونسية للكتاب، ط١

العطوي، مسعد (١٩٩٣)، الرمز في الشعر السعودي، الرياض، مكتبة التوبة، ط١.

غازي، عتيقة (٢٠٢٠)، مقال الروائي واستدعاء التاريخ، موقع الكتروني "بالعربية". https://bilarabiya.net/17467.html

فضل، صلاح (١٩٨٥)، نظرية البنائية في النقد الأدبي، مصر، دار الشروق، ط١.

لقاء بعنوان أحمد الصالح بعد عقود من الشعر (٢٠٠٠)، *مجلة التُّوباد*، الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، عدد ٢٠.

المطوع، إبراهيم (٢٠٠٧)، حركة الشعر في منطقة القصيم من عام ١٣٥١هـ- ١٤٢٠هـ، بريدة، نادي القصيم الأدبي.

المطيري، عبد الله (٢٠١٨)، شعر أحمد الصالح دراسة أسلوبية، بريدة، نادي القصيم الأدبي، ط١.

نوفل، يوسف (٢٠٠٠)، استشفاف الشعر، مصر، الشركة العربية العالمية للنشر.

هلال، محمد غنيمي (٢٠٠٨)، الأدب المقارن، القاهرة، نهضة مصر.

وردة، محص (٢٠١٨)، شعرية العنوان وإنتاج الدلالة في مجموعة أباطيل لهدى النعيمي، *مجلة أنساق*، جامعة قطر، مج٢، عدد ٢، ٤٧-٥٨.

الورقي، السعيد (٢٠١١)، لغة الشعر العربي الحديث، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ط١.